الفصل الثالث

توحيد أهل الأسرار

هل هناك ما سوى الله ؟؟ !

على هذا السؤال الأزلى يجيبون .

نعم . . هناك العدم . . فما سوى الله عدم . والعدم عندنا غير معدوم . . فالعدم هو الوجه المقابل للوجود كالظلمة فى مواجهة النور والسالب فى مواجهة الموجب والقابل فى مواجهة الفاعل وكالمرآة فى مواجهة الشمس .

وفى العدم حقائق أزلية قديمة هى شئون الله ، ونحن كلنا كنا حقائق فى العدم أخرجها الله برحمته وأعطاها لبسة الوجود وجعلها محلا لتجليات أسمائه وصفاته .

« هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

(الأحزاب : ٤٣)

« وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » .

(مريم : ٩)

وهذا الخلق الدائم المتجدد وإخراج الحقائق من العدم إلى الوجود ومن الظلمة إلى النور هو شئون الله .

والله هو الوجود المطلق الذى يستحيل عليه العدم . . فلم يبق إلا أن يكون العدم هو « الغير » والسوى بالنسبة لله . . وأن تكون النظرة الثنائية نظرة لا معدى عنها لفهم الأمور .

ولكنها نظرة ثنائية لا تنفى وحدة الوجود . . فالوجود كله لله ولا « وجود » لغيره ولا فاعل غيره طالما أننا وصفنا الغير بأنه « عدم » وبأنه « قابل » وليس فاعلا .

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » .

(البقرة : ١١٥)

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

(النساء : ١٧١)

« هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ » . (الحديد : ٣)

ووحدة الوجود بهذا المعنى وحدة وجود إسلامية لا وثنية فيها ولا أثر لانحرافات وحدة الوجود الهندية PANTHEISM فلا توحيد فيها بين العبد والرب ولا قول بأن الرب هو عين العبد . . ولا دعوى مشبوهة مثل دعوى « أنا الله » . . فقد قلنا من البداية إن العبد كان حقيقة أزلية فى العدم . . حقيقة سالبة « قابلة » لا فعل لها . . وإنما خرجت إلى الفعل والوجود والحياة بفضل الله ، وإن العبودية والافتقار والاحتياج خصائص ملازمة لها منذ الأزل . . ولا تصح لها دعوى ربوبية على الإطلاق إلا إذا أصابها الجنون أو الكفر أو الإلحاد .

وللصوفى العارف الأمير حسن بن مكزون السنجارى (عاش فى أوائل القرن السابع الهجرى فى سنجار بالعراق وكان أميراً على إحدى قبائلها) نكتة لطيفة فى هذا الباب فهو ينصح بضرب الصوفى المجذوب الذى يقول : « أنا الله » وصكه بعنف فإذا احتج فقد تناقض مع دعواه (بأنه الله) وأثبت قوة فاعلة غير الله . . وفى ذلك يقول شعراً :

حاجج لمن قال « أنا أنت » بالسب وبالضرب وبالصك .
فإن أبا ذا منك فقل ملت عن توحيدك المحض إلى الشرك .

ويقول المكزون السنجارى فى شهادته التوحيدية :

أشهد ألا إله إلا الله الأحد لا من عدد الظاهر بذاته من غير جسد المتنزه عن الصاحبة والولد .

والذات الأحدية عنده لا تقبل التعدد لأنها كاملة وتعدد الكامل مستحيل فكل ما يكون فى نفسه تام لا يحتاج إلى آخر . . والكامل القادر الواحد يفى بجميع المراد فلماذا يتعدد . . وما الداعى إلى زيادة لا حاجة لها إلا أن تكون عبثاً وفضولا ولا عبث ولا فضول فى الكون .

تعالت ذات الله عن التعدد والكثرة وتعالت عن الحركة والسكون وعن الحلول والاتحاد وعن التغير والفساد وعن احتواء الجهات وعن الأسماء والصفات . . لا تحل فى كيان وإن ظهرت للعيان .

تعالت ذات مولاى عن الحيِّز والوصف
وعما حال فى الشكل وما يُلحظ بالطرف
تعالت ذات مولاى عن الإدراك بالعين
وعن دائرة الأين وإن شوهد فى الأين

ويقول « المكزون » إن كل ما نرى حولنا هى حضرة مجاز وتمثيل (أمثلة لقدرة الله وصفته ، أما الذات القادرة الواهبة فهى فى الغيب لا مثل لها) .

ليس لها بالحسن مثلٌ إنما تمثلت عند الظهـور بالمثل
موصوفة بين الورى وحسنها تحت النعوت والصفات مادخل

ويقول فى شعر رقيق مخاطباً الذات الإلهية :

إذا وصف العشاق معنى جمالكم
فتجريده من كل وصف له وصفى
وإن عبَّروا باللطف عنه فإننى
أقول مفيد اللطف جل عن اللطف

والذات عنده متعالية على الأسماء والصفات ، فالأسماء والصفات مفادة منها ولكنها هى ذاتها فوق حدود التسمى وفوق حصر الصفات :

يفنى الكـلام ولا يحيط بوصفه
أيحيـط ما يفنى بمـا لا ينفد ؟
وتعدد الصفات لا ينفى وحدة الموصوف
عباراتنا شتى وحسـنك واحـد
وكل إلى الجمـال يشـير

ومن لطف الله أنه يتقرب إلينا ويتعرف علينا بأوصافنا نحن لا بأوصافه هو ، وذلك على سبيل الإيناس المألوف بدلا من أن يواجهنا بذاته التى ليس كمثلها شىء فتهلكنا الرهبة ويسحقنا الجلال من ذلك الذى لا نعرف له شبيهاً ولا نعرف له أولا من آخر .

فالرائى لا يرى من المنظر الإلهى إلا ما يشاكله هو من صورة الأسماء والصفات .

ممنوعة بالصفاء رؤيتها للعين إلا بوصف رائيها

يُطْمعه الاسم « الظاهر » بمعرفة الذات ويظن أنه قد وصل ثم يكتشف أنه ما زال بعيداً وما زال واقفاً عند نفسه هو :

بصفاها ممنوعة أن تراها عين راء إلا بوصف الرائى
ولعجـزى أن أراها بإيا ها بدت بالصفات والأسماء
فعليها ما دل قلبى سواها وإليها لم تَدْعُنى بسوائى

والمعرفة عند ابن مكزون نوع من المغامرة المستمرة لا تنتهى إلا لتبدأ ، فهو يحاول أن يعرف الذات بواسطة الأسماء ثم يفاجأ بأنه إنما عرف الأسماء بواسطة الذات ، إذ هى التى وهبت الأسماء خصائصها وصفاتها المميزة واحتفظت بذاتها فى سر السر منزهة عن الوصف والكيف ، لا تحل فى كيان وإن ظهرت للعيان ، فالاسم والوصف كاشف وهو فى الوقت نفسه ساتر وحاجب :

كالشمس يجلوها على العين نورها
وهو لنـــا عن كنهـــا ســـاتر

فنور الشمس الشديد يحجب عن العين تفاصيلها وإن كان يجلوها متلألئة .

والصفات الإلهية عند ابن مكزون تقع على الاسم وليس الذات ومن هنا قول القرآن .

« سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى » . (الأعلى : ١)

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ » .

(الحاقة : ٥٢)

« واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا » .

(المزمل : ٨)

« واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وأَصِيلاً » .

(الإنسان : ٢٥)

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الجَلالِ والإِكْرامِ » .

(الرحمن : ٧٨)

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق » .

(العلق : ١)

« فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ » .

(الحج : ٣٦)

« ولِلهِ الأَسْماءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِها » .

(الأعراف : ١٨٠)

وفى ذلك يقول عن الذات الإلهية :

وهى العليَّة عن وصفى وعن كلمى

فالله بإفادته القدرة للقادرين سمى قادراً ، وبإفادته الكرم للكرماء سمى كريماً ، وكذلك كل ما وُصف به إنما جرى عليه من قبيل أنه وهبة وإفادة لا من قبيل أن هذا الوصف أو ذاك كمال لذاته ، فصفات الله بهذا الاعتبار موهوبات من ذات الله ومفادة لأسمائه الحسنى ، أما ذاته فمنزهة عن الصور والأوصاف لأنها واحدة الحسن ، وإنما هو سبحانه

يتلطف بعباده فيظهر لهم بالصفات والأسماء ويدعوهم بالصور المشابهة لهم حتى يستأنسوا . . ولهذا قال الحديث . . « خلق آدم على صورة الرحمن » ، ولم يقل على صورة الله أو الذات ، فالله ظهر بالاسم الرحمن والرحمن خلق الإنسان على صورته لطفاً منه ليتم الائتناس وليمكن الحوار . . أما الذات فهى فى العلو والتجريد لا يحيط بها وصف ولا اسم .

وفى ذلك يقول ابن مكزون . . من عرف موقع الصفة بلغ قرار المعرفة . . أى من عرف وأدرك أن الصفة لا تقع على الذات الإلهية وإنما هى مستفادة منها ومفادة إلى الواحد أو الاسم أو الشيء أو النفس القابلة وواقعة عليها . . من عرف ذلك بلغ قرار المعرفة .

ولهذا يرد النبي عليه الصلاة والسلام كل شيء فى النهاية إلى الذات الإلهية فى حديثه :

« أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك » .

فهو فى البداية يستعيذ من أفعال وأسماء وصفات إلهية (أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك) ، ثم فى النهاية يسلم إلى الذات كل شيء (أعوذ بك منك) .

والذات سارية فى جميع الحضرات الوجودية فى العالم مثل سريان الواحد فى العدد ومثل سريان المداد فى الحروف ولا يوصل إلى الله إلا بنور الله .

ولا يعرف الله إلا بالله . . ويقول الشاعر فى ذلك :

وليس عليك غَيْرك من يدلُّ

ومن العارفين من لا يصل إلى الله إلا استدلالا فيستدل بفعله على

صفته وبصفته على اسمه وباسمه على ذاته سبحانه وأولئك ينادون من مكان بعيد . . ومنهم من تحمله العناية إلى حريم الشهود فيشهد أنوار الحضرة . . وبين الرجلين بون شاسع .

والله هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

سبحانه لم يسبق له حال حالا فلم يكن أولا ثم أصبح آخرا أو كان باطناً ثم أصبح ظاهراً . . بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن فى ذات الآن دونما استحالة فى اجتماع الضدين ، لا يمنعه البطون من الظهور ولا يقطعه الظهور عن البطون .

وأقرب الطرق إلى معرفة الله هو معرفة النفس الإنسانية .

« وفِى أَنْفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرُونَ » .

(الذاريات : ٢١)

وفى الحديث الشريف . . « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

فالنفس لها ظاهر وباطن فى الوقت نفسه ، كما أن الله ظاهر وباطن . . وهى واحدة وهى كثرة من الصفات والأسماء .

والإنسان سميع بصير مريد متكلم عليم حكيم خالق مصور وهو حاكم لظروفه مهيمن على بيئته .

والإنسان ديمومة ممتدة فى الداخل وزمن موضوعى فى الخارج وهو بهذا المعنى نموذج مصغر ومثال من ربه . . وروح الإنسان وجسده مثال لذات الله ، لكون فلا انفصال بين روح الإنسان وجسده كما أنه لا اتصال بينهما ولا يمكن القول بحلول الروح فى الجسد ولا باتحادها به ، فلو كانت روح الإنسان متصلة بجسده لنقص منها جزء إذا بتر

من الجسم جزء ولاقتضى الأمر فى النوم ألا نرى ولانبصر لتوقف آلات البصر بإغلاق العين .

كما أنها ليست منفصلة عن الجسد وإلا لما كان زيد أحق بها من عمرو . . كما أن الرؤيا الصادقة فى المنام هى دليل آخر على عالم الروح الغيبى المختلف عن عالم الجسد بحدوده وآلاته .

كذلك تبدو الأعضاء متحركة بذاتها (مثل النجوم التى تبدو متحركة بذاتها) مع أن الفعل كله للروح المحركة . . فالروح لها قيومية على الجسد كما أن لله قيومية على الكون .

وعلاقة الروح بالجسد لا هى حلول ولا اتحاد ولا هى اتصال ولا انفصال مثلما أن علاقة الله بمخلوقاته لا يجوز وصفها بالحلول ولا بالاتحاد ولا بالاتصال ولا بالانفصال .

والنفس تظهر فى أفعالها دون أن تحيط بها أفعالها .

والنفس لها ظاهر وباطن مثلما يوصف الله بأنه ظاهر وباطن .

والنفس لها وجود غيبى كما أن لها حضوراً مشهوداً .

والنفس سارية فى جميع الأفعال طول الوقت فى لطف وخفاء .

والنفس من هذه الوجوه أكثر الحقائق شبهاً بالسر الإلهى وفى ذلك تقول الآية القرآنية البليغة :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ » .

(فصلت : ٥٣)

فالنفس آية كاشفة عن جلال الرب فى دقائق أوصافها وخصائصها .

وفكرة ابن مكزون عن الصفات الإلهية (أنها مفادة من الذات

للإنسان) تجعل الإنسان محل عناية وموهوب مجاناً برحمانية الصفات الحسنى ومواهب العالم الأسنى :

إلى الرحمن نسبة كل عبد
ظهور صفاته الحسنى عليه

والكل مدعو للتحلى بهذه الصفات بلا مقابل والشرب من حوضها النورانى الذى هو عين الحياة وإكسير الخلود .

« ومَن يُرِدْ فليأخذ ماء حياة مجاناً » .

(رؤيا يوحنا ٢٢ / ١٧)

والسر الإلهى سار فى الكون فى لطف وخفاء فيما يسمى بالنفس الرحمانى .

وسركم فى الكون سار وإنما
على كل قلب ضل عن فهمه قفل

وفى ذلك يقول ابن مكزون السنجارى أبياتاً جميلة رقيقة :

وساحر زال عقلى بالسحر من مقلتيه
كلما وجهت وجهى عنه أراه إليه

ويقول فى مكان آخر :

أين أمضى هارباً من ذى الجلال
وابتغائى هرباً منه محال
وهو لى فوق وتحت وورا
وأمام ويمين وشمال

ويخاطب حبيبته ونفهم أنه يخاطب الذات الإلهية فكل جمال فى

حبيبته وكل حسن مفاد من الذات الإلهية .

ولولا ليل شَعْـرك ما ضللنـــا
ولولا صُبح ثَغـــرك ما اهتدينـــا
وأثنينـــا على أوصـــاف سُعدى
ومعنى غـــير حُسنك ما عنينـــا

وذات الله غيب .

وجميع الأسماء والصفات الإلهية ما نعرف منها وما لا نعرف كلها مجملة كامنة فى تلك الذات كمون الشجرة فى النواة ، وتلك هى الحضرة الأحدية الغيبية (عالم الجبروت) وفى (عالم الملكوت) تظهر الحضرة الصفاتية الأسمائية تنزلا من عالم الغيب ، وفى (عالم الملك) تتنزل الأسماء الإلهية والصفات لتمد المخلوقات بالنفس الرحمانى وترعاها بالتربية والعناية وتلك حضرة الربوبية ، أو نزول الله إلى السماء الدنيا لاستعمال الحواس وتحريك الأعضاء فهو السامع والباصر والناطق على كل لسان وهو قيوم كل شيء وهو مخرج الزهور من أكمامها والأجنة من أرحامها .

وفى عظام الناس لى نشأة سـيارة مركزهـــا المخ

وكل هذه المستويات الوجودية هى ظهورات أو تجليات أو تنزلات الواحـــد .

والله بهذا المعنى ظاهر فى جميع المظاهر ولكنه منزه عنها جميعاً وهو غيرها وإن قامت به كما يقول الصوفية :

أرانى فيك موجـــوداً وعنى أنت منفـــرد

وأقرب تشبيه للأمر هو تجلى الوجه فى المرآة – فأنت ترى نفسك فى المرآة . . ومع ذلك فما يبدو فى المرآة هو أنت وأيضاً لست أنت . . وأنت موجود فى المرآة دون حلول ودون اتحاد ودون انتقال . . وإنما مجرد ظهور أو تجل .

ولسان حالك يقول وأنت تتأمل صورتك فى المرآة :

نظرى فى الزجاج أشهدنى نفسى
وغيرى على خلاف الحال
مثل ما فى المرآة أشهد منْ خلفى
أمامى وعن يمينى شمالى

وسوف تقول لنفسك فى المرآة :

أنا لا أنا هو لا هو

وسوف تقول للزجاج :

أرانى فيك موجوداً وعنى أنت منفرد

وبمثل هذا يتجلى الله فى المظاهر المختلفة دون أن يحل فيها أو يتحد بها أو ينتقل إليها . فهو حيث كان ولا شىء معه ، وهو ما زال على ما عليه كان دائماً تتجلى كنوزه وأسراره فى عالم الممكنات ، كما تظهر صورتك متعددة فى مرايا متعددة فتبدو فى كل مرآة بزاوية خاصة ووجه مختلف :

وما الوجه إلا واحد غير أنه
إذا أنت عددت المرايا تعدد

والحدود المشاهدة هي بسبب المرايا ونوعياتها كل منها يعكس جانباً ويجلو زاوية بعينها ولكن الأصل غير محدود .

ترى كل عين منك طاقتها
ووُسْعها فانتفى تحديد معناك

كما أن تجليات الله بلا عدد وبلا نهاية وبلا حصر والإحاطة بهذه التجليات محال .

« قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

(الكهف : ١٠٩)

والتوحيد عند أهل الأسرار مراتب ودرجات . أدناها التوحيد اللسانى بقول لا إله إلا الله . ثم التوحيد البرهانى وذلك بالتفكر والتأمل والاقتناع ، ثم التوحيد حياة وعملا وسلوكاً وذلك بأن تكون حياة العارف مطابقة لأمر الله ومبذولة كلها لله وكأنما هو وإرادة ربه شيء واحد .

« قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لله رَبِّ العالمين . لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ » .

(الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣)

ومثل هذا العارف تتوحد أقواله بأفعاله وتتطابق نياته مع أعماله ويتماثل ظاهره مع باطنه فلا رياء ولا نفاق ولا كذب . . وإنما الكل منسجم فى وحدة هى ظل لناموس الله فى الأرض .

وذروة التوحيد هو التوحيد الشهودى وذلك بفناء العارف بين يدى ربه فلا يعود يرى لنفسه وجوداً ولا جسداً ولا كياناً ولا يشهد إلا نوراً

أنى توجه ، وبذلك تنتهى الثنائية ويعود العدم إلى العدم ويبقى الله لا إله إلا هو ولا وجود إلا له – واحد أحد صمد لا سواه . . وذلك هو معاينة التوحيد شهوداً . . ولا يكون إلا ببلوغ الحضرة وكشف الحجاب . . وتلك هى مرتبة « قاب قوسين أو أدنى » التى بلغها الرسول عليه الصلاة والسلام فى معراجه .

وبعد تلك الجمعية العلوية مع الرب يُرد الرب للنفس بقاءها وذلك هو البقاء بعد الفناء والعودة فى مقام العصمة والاستقامة .

ومثل هذا العبد الكامل بعد معراجه لا يعود يقطعه شيء عن ربه فهو مع الخلق لا تنقطع صلته بالحق ومع الحق لا تنقطع معاملاته للخلق . . فهو أبداً فى حالة حضور مع الله لا يغفل عنه لحظة ، فهو مع الناس بعقله ومع ربه بقلبه لا تقطعه الكثرة عن الواحد ولا يقطعه الواحد عن الكثرة ، فقد انتفى عنده التناقض بين الواحد والعدد فأصبح يرى كلا منهما فى الآخر .

كثـــرة لا تتنـــاهى عـــدداً
قـــد طوَتهـــا وحـــدة الواحـــد طى
كل شيء فيـــه معنى كل شيء
فتفطن واصرف الـــذهن إلى

وذلك هو توحيد الأنبياء .